تأتي تنفيذا لشرط الخلافة في الأرض

التنمية في الإسلام .. ركائز وقواعد

التنمية مفهوم حديث معاصر يشير كثير من الباحثين إلى وروده بشكل قليل في كتابات الأقدمين وهو كذلك لم يرد في القرآن الكريم والسنة المطهرة صراحة وبذات المسمى، ولكنه مما استجد في عصورنا الحاضرة حيث يشير إلى التقدم والتطور والنهوض والارتفاع وتغيير الواقع بواقع أفضل ويعتبر مصطلح "العمارة"، و"التعمير" من أفضل المصطلحات تعبيرا عن التنمية الاقتصادية في الإسلام.

ومفهوم التنمية في الإسلام كما أشار بعض الباحثين يعني: "استغلال المجتمع لخيرات الأرض بالعمل الصالح تنفيذا لشرط الخلافة والتمكين، وتحويلها إلى سلع وخدمات لإشباع الضروريات عند حد الكفاية لكافة أفراده عبر تشغيل كامل وتوزيع عادل". وبعكس ذلك يكون المجتمع في حالة من التخلف، وهذه الحالة عرفها بعض أيضا الباحثين بأنها: "عدم قدرة المجتمع (المستخلف) للوفاء بحاجاته الضرورية. مما أدى إلى نقص في حد الكفاية النسبي لأفراده، بسبب عدم قيامه بواجب الخلافة (عمارة الأرض) وعزوفه عن استثمار الموارد المتاحة". وقيل هي نقل المجتمع من الوضع الذي لا يرضاه الله، إلى الوضع الذي يرضاه. وقد عد بعض الفقهاء أن التنمية في الإسلام تدخل في إطار الواجبات التي تقع على عاتق المسلم بل واعتبر الإسلام السعي إلى الرزق وخدمة المجتمع وتنميته أفضل ضروب العبادة.

■ هي من أفضل أشكال العبادة والمسلمون مقربون إلى الله تعالى بقدر تعميرهم لمجتمعهم

إن التنمية الاقتصادية في الإسلام فريضة وعبادة بل هي من أفضل أشكال العبادة والمسلمون مقربون إلى الله تعالى بقدر تعميرهم لمجتمعهم وأخذهم بأسباب التنمية الاقتصادية وقد لخص سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظرة الإسلام إلى الإنتاج والتنمية بقوله: (والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة). وهذا يشير إلى أهمية التطور والنهوض والرقي في الإسلام ويدل على اهتمامه برفع مستوى الأمة المسلمة ورفعها إلى أرقى المستويات على الصعد كافة، واستشهد الفقهاء بقول الله عز وجل: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود:61]. على أنها تفيد الوجوب، والطلب المطلق من الله يكون على سبيل الوجوب، وقال بعض العارفين بأن في هذه الآية إشارة إلى وجوب عمارة الأرض بالزراعة والغرس والأبنية.

وقد وفر الإسلام الحوافز التي تجعل الإنسان يسعى لتحقيق التنمية من خلال منهجه العظيم في التربية وحث المربين على غرس قيم حب العمارة والنمو في نفوس الأجيال المختلفة حيث أن الله لم يخلق الإنسان في هذه الحياة عبثا بل خلق لرسالة يؤديها هي أن يعمر هذه الأرض بالعبادة والشكر لله عز وجل ليلقى ربه في نهاية المطاف بقلب سليم ونفس مطمئنة. قال تعالى: (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ويقول صلى الله عليه وسلم: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) وورد في الأثر أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن اخشوشنت يداه من كثرة العمل (هذه يد يحبها الله ورسوله). ووضع أيضا الحوافز الأخروية والروحية، التي ترغب في العمل وتحث عليه، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ [الأحقاف:19]. وقوله تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ [الكهف:30]. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة". ومن ذلك أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحيا أرضا ميتة فهي له، وما أكلت العافية منه له به صدقة".

لقد وضع الإسلام ركائز وقواعد هامة للتنمية يستند إليها المسلم في أدائه لرسالته في النهوض بأمته ومجتمعه ومنها:

- الاستخدام الأمثل للموارد والبيئة والطبيعة التي وهبها الله تعالى للإنسان وسخرها له.

- الالتزام بأولويات تنمية الإنتاج، والتي تقوم على توفير الاحتياجات الضرورية الدينية، والمعيشية، لجميع أفراد المجتمع دون إسراف أو تقتير، قبل توجيه الموارد لإنتاج غيرها من السلع.

- إن تنمية ثروة المجتمع وسيلة لتحقيق طاعة الله، ورفاهية المجتمع وعدالة التوزيع بين أفراد المجتمع. ومن هنا يتبين الربط المباشر لعملية التنمية بالعبادة، والمستمد من قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود:61].

■ الشمولية والتوازن والعدالة وتأمين الحاجات الضرورية للإنسان من أهم مبادئها التي وضعها المشرع

ولاشك أن لهذا الفعل العظيم غايات وأهداف سامية قصدها الشارع الحكيم من هذا أبرزها:

1. توظيف واستخدام كافة الموارد التي أودعها الله في الطبيعة لتحقيق السعادة للإنسان في حياته الدنيا تمهيدا لتوظيفها في بلوغ هدفه النهائي وهو رضا الله سبحانه وتعالى. لأن ابن آدم محاسب على أفعاله وتصرفاته قال تعالى: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الجاثية آية: 12].

2. تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي للأمة واستخدام ثمار هذا التقدم، لنشر مبادئ وقيم الإسلام العظيمة متمثلة في السلام والعدل والعلم والحلم والاحترام .... حيث تعتبر التنمية الاقتصادية ليست عملية اقتصادية قائمة على "الإنتاج فقط" وإنما هي عملية إنسانية تبتغي تنمية الإنسان وتقدمه المادي والروحي معا.

والإسلام، بهذين المرتكزين، يقف موقفا مغايرًا تمامًا للمرتكزات الوضعية في التنمية، والتي تستمد من فهم الفكر الاقتصادي الوضعي بطبيعة المشكلة الاقتصادية التي ترى أن الأصل هو ندرة الموارد، وأن هناك مقابلة غير متكافئة بينها وبين الموارد المتاحة وبالتالي عدم كفايتها لإشباع حاجة الإنسان، بينما نجد الأصل في الإسلام هو وفرة الموارد الطبيعية وكفايتها لتلبية حاجات البشر جميعًا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار× وآتاكم من ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم : الآية 33، 34].

وتمتاز التنمية في الإسلام بمميزات تجعلها تختلف عما تقدمة النظم الوضعية منها ومن أبرز هذه الخصائص: الشمولية والتوازن والعدالة وتأمين الحاجات الضرورية للإنسان.

إن التنمية الاقتصادية في الإسلام غايتها الإنسان أولا وفي النهاية المجتمع ككل ليحيا سعيدا برضا الله ويحقق الغايات والأهداف التي أرادها له الشارع الحكيم.

من الإعجاز العلمي في كتاب الله

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»

إننا نحيا في ملكوت الله، كون محكم بإتقان؛ كلما تأملناه رأينا الجمال والإشراق والحكمة والعلم. وكما أتقن الله ملكه وأحكم آياته في خلقه ونظامه بقدرته وعلمه، فقد أحكم آيات كتابه، وجعلها رمزا إلى آياته في مخلوقاته بقدرته وعلمه. وكما قال الحق أن هذا الكتاب هو آيات تهدينا إليه، فقد ذكر سبحانه أن في هذا الكون أيضا آيات تبصرنا به وتدلنا عليه. وكما أبدع الله في آياته في هذا الكون الذي أبدع خلقه، فكان اسما من أسمائه ﴿بديع السماوات والأرض﴾، كذلك جاء كتابه إعجازا لا يقدر أن يأتي بمثله أحد، كما وصفه الحق بقوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

وتستعرض في هذا الفصل بعضا من هذه الآيات بقوله تعالى في كتابه العزيز، من الآية 37 إلى الآية 40 من سورة يس: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

نرى الآية الأولى تصف وصفا جليا عملية تعاقب الليل والنهار، فالأرض في أي لحظة أو توقيت، يكون نصفها معرض لأشعة الشمس ونورها، والنصف الآخر يكون بعيدا عن أي شموس أو نجوم أخرى، فهو يرقد في ظلام يشمل الكون كله -كما توحي إليه هذه الآية الكريمة- كحقيقة علمية رآها رواد الفضاء مؤخرا، و جاءت بهذا الإعجاز في الآية الكريمة حيث تشير أن الظلام هو الأصل وأن الحادث هو النهار، ولهذا فإن النهار هو الذي ينسلخ عن الأرض فتنغمر الأرض في ظلام الكون مرة أخرى، فعندما تدور الأرض حول محورها يبتعد هذا الجزء المنير الذي شمله ضوء الشمس رويدا رويدا فيتحول نصف وجه الأرض من النهار إلى الليل، ولن يجد العلماء أيضا وصفا علميا لهذا التعاقب أدق وأعمق من هذا النص الذي جاء به القرآن الكريم: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾. وتضعنا هذه الآية أمام قاعدة علمية لحساب اليوم الكامل، تبصرنا بحكمة الخالق وعزته، وهو الفرق الثابت بين كل انسلاخين للنهار أو زوالين أو غروبين للشمس، فنجد أن هذا الفرق ثابتا لا يتبدل ولا يتغير مهما تغيرت الفصول والشهور والسنوات، وأيضا أمام حقيقة أخرى علمناها مؤخرا، وهي أن حدوث هذا الانسلاخ لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها في ثبات كامل أمام الشمس، بحيث تنغمس في الظلام عند نهاية النهار، وأنها أيضا تدور بسرعة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير رغم تعاقب السنين والقرون والدهور، بحيث لا يسبق الليل النهار كما تعبر عن هذا آية تالية ﴿ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، من صنع هذا الثبات لكل شيء في فلكه، للأرض وللشمس ولكل كوكب ونجم، إننا أمام حقائق جاءت بدقة متناهية بحيث تعبر عن آية لا تقبل الشك عن عزة الخالق وقدرته وعظمته، فكيف يتأتى الحفاظ على هذا الفرق الثابت بين الانسلاخين، وعلى هذا الفلك الثابت للأرض -رغم حركتها المركبة حول محورها المائل وحول الشمس، ومع الشمس ومع سقوطها ضمن المجموعة الشمسية بسرعة هائلة في الفضاء الهائل من حولنا-.

إن هذه الآيات الكونية لا تتأتى إلا بتقدير إله عزيز عليم، كما تنبئنا الآية التالية بهذه الأسماء الحسنى لله خالق هذا الإعجاز، عزيز ومنفرد في قدرته وعلمه. إن هذه الدورة المحتومة للأرض حول نفسها، وهذا التعاقب لليل والنهار دون تقديم أو تأخير بهذا الثبات والدقة، قاد الإنسان إلى تعريف الزمان والوقت، حيث قسم الزمن الذي تدور فيه الأرض حول نفسها إلى أربع وعشرين ساعة، وبهذا استطاع البشر أن ينظموا أوقاتهم وحياتهم، وهل يتأتى هذا الانتظام من تلقاء نفسه؟ وإذا تدبرنا هذه الآية ونظرنا إلى البشر عندما يطلقون عربة صغيرة -يسمونها بالأقمار الصناعية وهي لا تزيد في وزنها عن أصغر الأحجار على القمر- وتدور حول الأرض لمدة محدودة، ويطلقون معها معدات لضبط مسارها حول الأرض وتصحيح انحرافاتها الدائمة، ثم تجدهم يعجزون في معظم الأحوال عن الاحتفاظ بهذا المسار لهذا الشيء التافه حجما ووزنا لأي مدة تزيد عن عدة شهور، تعلمنا عزة وعلم الخالق الذي احتفظ بهذا المسار للأرض ولكل كوكب طوال ملايين وبلايين السنين، دون انحراف أي شيء عن مساره، إنه حقا خالق عزيز عليم.

لقد جاء القرآن بهذه الأدلة من الله الذي يعرف السر في السماوات والأرض، ويوجهنا إلى هذه الحقائق والأسرار بأدق التعبيرات أو الكلمات، التي نراها أمامنا في هذه الآيات حتى يهدينا إلى عظمته وجلاله، ونشعر أمامها بعظمة قائلها وصانعها، ونرى عجزنا عن أن نأتي بمثلها صنعا وعملا وقولا، فنهتدي إليه وإلى وحدانيته.

ثم تأتي الآية التالية من هذه الآيات بإعجاز عن حركة الشمس، وكيف جعلها الله في جري دائم حتى تستقر في نهاية الأمر طبقا لأوامر خالقها ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. لقد اعتقد العلماء في القرن الماضي أن الشمس هي مركز الكون وأنها ثابتة في حجمها وكتلتها ومكانها، وأن كل شيء يتحرك حولها، واعتقدوا ببقاء المادة وعدم فنائها، واعتقدوا أن للمادة دورات وللزمان دورات فلا ينتهيان، ولكن تأتي هذه الآية لتبين بهذا النص المعجز منذ 14 قرنا من الزمان، أن ما يجري لكل شيء في الكون يجري على الشمس وعلى المادة وعلى الزمان أيضا، فالشمس تجري وتتحرك وتهوى في هذا الكون السحيق، وهي تتوهج الآن ثم سوف تخبو وتستقر بعد حين، فالشمس تتناقص حجما ووزنا حتى تستقر وتتلاشى بعد حين.

والشمس وهي تجري -أيضا- فإنه يجري معها أعضاء مجموعتها المرتبطة بها من الكواكب، وكذلك فالشمس تدور حول نفسها وتديرنا حولها، فهي تجري وكواكبها يجرون من حولها إلى أن تستقر حركتها فيستقرون معها، وهذا ما أكده العلم الحديث في مشاهداته الفعلية، وأرضنا التي نعيش عليها ليست إلا كوكبا من كواكب المجموعة الشمسية التي تجري في ركب الشمس وتنقاد معها وفقا لتقدير الخالق العزيز العليم، وسوف تستقر حركة الشمس بعد هذا الزمن، وحين تأتي هذه اللحظة سيتوقف الزمان بالنسبة لأهل وسكان المجموعة الشمسية، ولن يدور الزمن دورته، ولن تبقى المادة على حالها كما كان يدعي الماديون والكافرون والملحدون، فللشمس ميقات ستستقر عنده بأمر خالقها وسينتهي عنده كل شيء، هذا ما أكده العلم وما تأتي به هذه الآية من خالق الشمس على أن الشمس سوف تستقر بعد هذا الجري الدؤوب، وقد أثبت العلماء أن الشمس كرة من غاز الهيدروجين، وتصل درجة الحرارة في باطنها إلى أكثر من 15 مليون درجة، ويحدث بها أعقد التفاعلات النووية الاندماجية التي سوف تحولها في النهاية من كرة متوهجة إلى كرة مستقرة، ففي هذه الدرجة تندمج ذرتي الهيدروجين المتوهج وتتحولان إلى ذرة من غاز الهليوم الخامل، ويتحول جزء من كتلتي ذرتي الهيدروجين إلى طاقة تزيد الشمس تأججا و تمنحها الطاقة التي تبعثها إلينا. وقد حاول الإنسان أن يحاكي ما يحدث في الشمس، ولكنه عجز عن هذا، وأدت أبحاثه في هذا المجال إلى اكتشافه للقنابل الهيدروجينية التي تنتج كما هائلا من الطاقة ينشأ عنها انفجارات مدمرة، وهكذا لم يتمكن البشر إلا في استخدامها للتدمير وليس لعمارة هذا الكون كما يحدث في شمسنا بأمر الله. وقد عجز البشر حتى يومنا هذا أن ينتجوا الطاقة الكهربائية باستغلال تفاعلات اندماجية كالتي تحدث في الشمس، وكي ترسل الشمس كل هذه الحرارة فإنها تحرق في كل ثانية 600 مليون طن من مكوناتها من الوقود الهيدروجيني، وهكذا يتحول غاز الهدروجين بعد احتراقه أو اندماجه إلى غاز الهليوم الخامل باستمرار وثبات ودون توقف، على مدى الأيام والقرون والدهور، وينطلق من الشمس مع هذا التحول في كل ثانية كمًا من الطاقة يكفي ما تحتاجه الأرض لمدة مليون سنة كاملة، ولكن هذا الكم يتوزع على الكون بأكمله ويكون نصيب الأرض من هذا الكم قدر محدد لها يكفيها دون زيادة أو نقصان، وهكذا فإن الشمس تتغير و تبدأ من غاز الهيدروجين الذي يجري له أو به هذا الكم الهائل من التفاعلات والاندماجات، ثم ينتهي إلى كرة من غاز ساكن أو خامل هو الهليوم، ولا يبقى لها في النهاية وقود يقاوم قوة جذب كتلة هذا الغاز الخامل، فينقلص نجم الشمس بتأثير وزنه، وتصير الشمس في النهاية قزما ساكنا أبيض، أو ثقبا أسود في هذا الكون كما حدث في ملايين النجوم الأخرى، التي كانت مثل شمسنا وجرى لها ما سيجري لشمسنا بعد فترة قدرها العلماء بحوالي 500 مليون سنة كي تتحول إلى هذا القزم الساكن.

والآن ما الذي يحتفظ للشمس بهذا الجري والتفاعل بهذا الثبات الممتد عبر ملايين السنين التي نشأت أثناءها الحياة على الأرض، والتي تكونت خلالها الأرض؟ إن الشمس لو بردت بأقل عدد من الدرجات عن درجتها الحالية التي تقدر بملايين الدرجات، فسيؤدي هذا إلى انخفاض معدلات الاحتراق بها إلى النصف، وهذا ما يؤكده العلم الحديث، وبهذا تقل الطاقة التي تصل إلى الأرض فتتجمد الأرض، ولو زادت بضع درجات لتضاعفت معدلات الاحتراق وتزيد معها الطاقة التي تصل إلى الأرض فتحترق -أيضا- الأرض، ثم إذا نظرنا إلى الشمس وهي تحترق وتقل كتلتها بملايين الأطنان في كل ثانية، فلنا أن نتعجب: هل هذا النقص الدائم في كتلة الشمس له الأثر على أفلاك الكواكب من حولها؟

النظريات العلمية تؤكد أن تتأثر هذه الأفلاك فتبتعد الأرض عن الشمس، ولكن لو حدث هذا فستتجمد الحياة على الأرض، وهذا لم يحدث خلال الملايين من السنين التي هي عمر الأرض. لقد حار العلماء في فهم أسرار هذه الشمس بحيث تظل بهذا الثبات لها ولمن حولها، وجاء هذا النص من الخالق أنه هو الذي قضى عليها بهذا الثبات، فأودع هذا التعبير في كتابه بأرفع المعاني والكلمات ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾، حقا إنه عزيز في قدرته وتقديره، عليم يحيط بعلمه كل شيء.

والعلم لا يستطيع أن يصل إلى سر جري الشمس بهذا الثبات في تفاعلاتها، وفيمن تجريهم حولها، ويأتي كتاب الله ليعلن أن هذا جاء بتقدير إله قدير ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾، هو من صنعه وحده وتقديره وحده ويعلمه وحده، وهذه الكلمات جاءت منه وحده.

ثم نأتي إلى الآية التالية التي تصف إعجاز الخالق في حركة القمر، هذا الكوكب الصغير الذي يدور حول الأرض كتابع مطيع يعكس لها في ظلمة الليل جزءا من ضوء الشمس الساقطة عليه، وله حركته المعقدة في الأماكن التي ينزل إليها بحيث تكون له دورة ثابتة، فتتوافق حركته حول الأرض مع حركة الأرض حول نفسه وحول الشمس، بحيث تستغرق كل دورة شهرا كاملا، يبدأ فيه القمر بدرا ثم يتلاشى شيئا فشيئا في توقيتات أو مواقيت محددة، وتتغير أشكال القمر بحسب مواضع نزول أشعة الشمس الساقطة عليه وما تحجبه الأرض عنه من هذه الأشعة، إنها حركة مركبة لا تستطيع أن تسيرها الصدفة، كيف تسير بهذه الطاعة والدقة المتناهية فتكون لها هذه الأشكال المتدرجة صعودا أو اتساعا وهبوطا أو ضيقا، و تأتي آيات القرآن معلنة بإعجاز أن هذه الآية المعجزة هي من صنع الله، فيعلمنا الله أنه هو الذي قدر للقمر هذه المنازل حتى يصير له هذا الانتظام في كل التوقيتات والأشكال على مدى الشهر الكامل، وفي كل شهر وعلى مدى الدهر كله بقوله سبحانه ﴿والقمر قدرناه منازل﴾.

تفسير سورة الإخلاص

﴿ 1 – 4 ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد × الله الصمد × لم يلد ولم يولد × ولم يكن له كفوا أحد ﴾

أي ﴿ قل ﴾ قولا جازما به، معتقدا له، عارفا بمعناه، ﴿ هو الله أحد ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿ الله الصمد ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ لكمال غناه ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.